حول مشروع تاريخ السيميوطيقا

أسئلة وقضايا ابيستيمولوجية*

سانكدو كيم

ترجمة محسن أعمار

I - ثلاث إشكاليات سيميوطيقية

إن السيميوطيقا تعيش، اليوم، أزمة بحث عن الذات، فبالرغم من النضج المؤسساتي،و تعدد البرامج العلمية، وكثرة المؤسسين، فإن السيميوطيقا تواجه،حاليا،حالة غموض أنطولوجي وابستيمولوجي, هذه الحالة الظرفية، كما يبدو، ناتجة عن غياب أو ضعف أسس علم العلامات, وأريد أن أشير إلى ثلاث إشكاليات رئيسية تساهم في هذه الأزمة.ويتعلق الأمر بالدرجة الأولى بالإشكال المؤسساتي, فالسيميوطيقا على مستوى المؤسسة، تحيل إلى جوهر سوسيو-ثقافي يجعل تطور المعرفة السيميوطيقية ممكنا, إن مؤسسة السميوطيقا كإجراء ، لا تطرح فقط ظاهرة بلورة إدارية، ولكن، تطرح أيضا وبصفة خاصة، البناء التدريجي للأسس الإبستيمولوجية مانحة لبعض أنماط الخطابات العلمية مشروعية اجتماعية. وفي إطار هذا السياق المؤسساتي، تعتبر السيميوطيقا،عموما، بالرغم من العدد المتزايد للتنظيمات المؤسساتية المتعددة الأشكال،نشاطا ثقافيا متطفلا أو متنقلا. وقد أحسن الباحث والمتخصص السيميوطيقي المعروف بويساك « Bouissac » وصف هذا الإشكال المؤسساتي قائلا: "إن السيميوطيقا تصطدم أيضا بالمقاومة الطائفية المتخصصة، ووضعها المتأرجح يجعلها عرضة في الآن ذاته إلى الرفض والإلحاق (...). ولا تندمج في المؤسسة الجامعية إلا عبر توافق أو عبر صيغ الوجود الطفيلي".(1990b. 218).

ومع ذلك، فبويساك « Bouissac » يصرح بأن هذه الأزمة ليست ناتجة عن مضايقة تستهدف السميوطيقيين. ولكنها تعكس صيرورة انبثاق ابستيمولوجي، كالذي عرفته علوم إجتماعية أخرى في القرن الماضي من أجل الحصول على استقلالها الذاتي. لذلك، فعدم الاستقرار المؤسساتي هذا، لا يمكن فصله عن الإشكال – أو الانزلاق – الثاني الذي يهيمن على الأسس الابستيمولوجية للسيميوطيقا. هذا اللبس أو "الفوضى الابستيمولوجية" ناتجة عن صراع بين عملية تأويل العلامات، وبين مجموعة من الآراء المتعارضة والملتبسة حول موضوعات المعرفة التي تستأثر

بها بعض مذاهب العلامة. بمعنى آخر، السيميوطيقا المعاصرة تواجه تضخما في المقولات وفي الأسس والخطابات السيميوطيقية، هذا التضخم يمس استقرار الموضوع السيميوطيقي ذاته.

ولهذا السبب، فالإشكال الابستيمولوجي يلتقي بالإشكال الثالث الأنطولوجي الذي يلحق العلامة عينها. إن السيميوزيس [اشتغال العلامة] انطلوجيا هو لا محدود. والخصائص السيميوطيقية تقتضي وجود معنى، ومع أننا ندرك تعدد اشتغال الدلالة ، والتراكم التدريجي، والطاقة المنفتحة للعلامة. فإننا نلاحظ أن العلامات المحددة، سيميوطيقيا، لا تشير إلى المرجع بما فيه الكفاية ولا تكشف عنه، إن المرجع السيميوطيقي يندرج ضمن الحدث المفرد الذي يستغني عن التصنيف أو النظرية الشكلية. لهذا، فالمشروع التفسيري للسيميوزيس لا ينفصل عن الموضوع التأويلي (الهرمينيوطيقي)، في النطاق الذي يمكن من تفسير ووصف وفهم ظواهر دلالية، وفي هذا السياق نفهم جيدا التأرجح الحاصل بين عملية التنظير، والتشكيك في هذا التنظير، تأرجحا يميز هذا التأويل المنفتح ذاته.

والسؤال الذي يطرح ،إذن، أمام هذا النوع من العقبات ،هل من الممكن بناء مفهوم تاريخ السيميوطيقا (= ت س)؟ سأجيب بنعم، بالفعل، فالوضع التاريخي للسيميوطيقا اصبح يسمح بضرورة استثمارالمقاربة الابستيمولوجية. ويتعلق الأمر بتوضيح مختلف الأوضاع الإبيستيمولوجية الشاذة للحركة السيميوطيقية، وبالتالي حصر مظاهر تشكل الابيستيمي السيميوطيقي. إن هدف هذا المقال يتجلى في طرح بعض الأسئلة الإبيستيمو-منهجية لتاريخ السيميوطيقا.

II – مفهوم تاريخ السيميوطيقا.

إن إشكالية تاريخ السيميوطيقا هي ثلاثية البعد، إذ يتعلق الأمر في الدرجة الأولى باضفاء المشروعية على البحث في الانتاج التاريخي والنقدي لتاريخ السيميوطيقا ،في اطار تاريخ العلوم او الافكار، وهذا يتطلب ضبط وبعث تاريخ تخصص لازال موضوعه هو نفسه صعب التحديد. إذا المسألة تقتضي حصر الافتراضات الفلسفية والتأويلية المتعلقة بغائية السيميوطيقا, وفي الدرجة الثانية، ينبغي بناء موضوع تاريخ السيميوطيقا، بمعنى رصد الواقعة السيميائية – أدوات: مذاهب، نظريات، ممارسات...الخ – على مستوى الانتاج التاريخي، إنها مسألة ملاءمة ابيستيمولوجية مرتبطة بالمنهجية.

أما في الدرجة الثالثة، فيجب تشييد منهجية تاريخ السيميوطيقا، و وضع نموذجها الوصفي والتفسيري.

من حقنا طرح السؤال التالي : لماذا تاريخ السيميوطيقا؟ إن الأجوبة ستكون بدون شك متعددة، ومع ذلك، فإن تاريخا كهذا لم ينجز الى حد اليوم، باستثناء مجموعة من ا لمقالات وبعض العروض السريعة

(راي 1973 ، جاكبسون 1975 دييبلي 1982 ، إشباخ Ischbach وترابون، Trabant 1983، دوتز Dutz وشميتر Schmittre 1986، وكلارك Clarke 1990).

ومن الضروري التذكير، بأن هناك دائما نوعا من إضفاء المشروعية الايديولوجية وراء سياق البحث في الانتاج التاريخي، بعبارة أخرى، لا مفر دائما من تبني مواقف حول أصالة وموضوعية البحث الجينيالوجي الخاص بأركيولوجية المعرفة في الوضعية التاريخية. لأن جينيالوجيا المعرفة تنبثق من استراتيجيات إضفاء المشروعية بهدف إقرار إبدالية تخصصية، (في حالة السيميوطيقا، انظر بويساك Bouissac، 1976) إن تحليل الأعمال المتعلقة بتاريخ السيميوطيقا، يساعدنا على تصنيفها في أربع مقولات بحسب غائية الانتاج التاريخي :

أ– إضفاء المشروعية على الأسس التاريخية لنظرية في مجال محدد من خلال الاهتمام بتعدد الرواد بدل التشبث بتنوع الأساليب المعرفية في حقبة معينة.

ب – أما المقولة الثانية فتفسر بعملية التحفز من أجل التحديد والتعريف بتخصصها عبر توفير مادة علمية وتاريخية، إن جل الأعمال التي أقيمت حول تاريخ السيميوطيقا تنتمي إلى هذه المقولة.

إن هدف هذا النوع من البحث يتمثل، ليس فقط في توضيح الظروف الملائمة والملازمة للبحث السيميوطيقي الحالي، ولكن يتمثل أيضا في استخلاص درس إبيستيمولوجي انطلاقا من المأزق والهاجس أو الحس الإنذاري – النجاح أو الفشل – في مجهودات الرواد، ومن وجهة النظر هذه، فإن علما ناضجا يميل نحو الانطواء حول تطوره، ومع ذلك، فزاوية النظر التي تعتبر السيميوطيقا علما بدون نقد، هي نظرة تشوبها ثغرة أساسية لجهلها بالأسس الابيستيمولوجية.

ج – في المقولة الثالثة، تاريخ السيميوطيقا يحجب قضايا نوعية لتاريخ الأفكار، وبالتالي، فهو مطالب بإبراز دينامية تاريخ الأفكار من خلال دراسة نماذج منهجية – استكشافية، وأطروحة باري Parret (1983) تعبر بوضوح عن هذا الموقف حين تميز بين الفلسفات الثلاث الأولى التي تحققت عبر تاريخ الفكر الإنساني : الانطولوجيا، الابيستيمولوجيا والسيميوطيقا المستوحاة من أبل Apel , ويعلن باري Parret أن السيميوطيقا، من حيث هي شكل للفكر وتكوين للفهم والتصور، تمتلك خصوصية كبرى. فبالنسبة له، بالرغم من تشتت السيميوطيقا المعاصرة، ومن التوتر القائم بين المواقف المتضاربة، فإن المجهودات التركيبية قد توصلت الى وضع إبدال أو نموذج تصوري :

"لكن **السيميوطيقا** – بالحرف البارز، تبقى دائما افتراضية و"مثالية"، إنها لم تتحقق أبدا بشكل كلي. ومع ذلك، ففي مقابل هذا الأفق للسيميوطيقا كمشروع إبدالي تركيبي يجب تقويم السيميوطيقات التي وجدت أو استمرت فعلا(باريت 1983 ص 384).

د – أما التصور الرابع لتاريخ السيميوطيقا، فيتجلى من خلال بناء أفكار وتأملات نسقية من أجل تاريخ للسيميوطيقا ،عبر التقاء التاريخ بالابيستيمولوجيا, ويمكننا، اذن، أن نحصر ثلاثة محاور. أولا يتعلق الأمر بتحديد النواة الصلبة التي تهم مجموع المعارف الخاصة بالعلامة، وكذلك الكشف عن تطور المعرفة السيميوطيقية. ثانيا : يجب حصر علاقات السيميوطيقا بالتخصصات الأخرى المعنية بالأمر : المنطق، الفلسفة، اللسانيات، التاريخ، تاريخ العلوم. ثالثا : من الواجب طرح السياق المؤسساتي من وجهة نظر سوسيولوجية المعرفة ،(سنتطرق إلى هذه النقطة بالتفصيل), إننا نعرف أن تاريخا للسميوطيقا كهذا ،لا زال بعيد التحقيق إزشباخ، 1983), بعد الإمساك بمفهوم تاريخ السميوطيقا، ننتقل الآن إلى حصر موضوعه بمعنى مجاله.

III- مجال تاريخ السميوطيقا

لتحديد مجال تاريخ السيميوطيقا، يجب في البداية بناء موضوع السيميوطيقا، أي السيميوزيس. وكما لاحظنا، سابقا، فإن مجموعة المفاهيم السيميوطيقية هي عبارة عن فضاء قطبي وضبابي. لنقل بأنه اعتبارا إلى الميل نحو المتباين، ونمذجة أنساق العلامات، فإن السيميوطيقا توجد داخل حركة انزلاق واضطراب, وهذه المسألة الانطولوجية حول السيميوزيس لا تكاد تنفصل عن طبيعة السيميوطيقا نفسها، وبالتالي عن مجال تاريخ السيميوطيقا.

لقد دارت نقاشات عميقة ومستفيضة حول موضوع وتاريخ السيميوطيقا ، في الندوة الدولية الثالثة التي أقيمت في فيينا سنة 1979حول السيميوطيقا، (بوربي، 1984) ,وبرفضه للتحديدات ذات المنطلق المؤسساتي أو الايبستمولوجي المسبق للموضوع السيميوطيقي، فإن دا سكال (1984) قد ألح على ضرورة وضع لائحة بالخصائص الملائمة دلاليا لبناء موضوع وتاريخ السيميوطيقا, أما راي ، (1984) فقد أشار من جهته الى ديناميكية، أو بالأصح ،إلى التنوع المفرط للسيميوزيس عبر عملية إبراز الأبعاد السوسيو-تاريخية. ومن خلال الأدلة التي قدمها، فإن تاريخ السيميوطيقا يفسر من خلال تاريخ العلاقة بين بناء نظري وإيديولوجي، وبين موضوعات إمبريقية.

"عمليا، فموضوع السيميوطيقا هو على الأصح مشكل من مجموع الحركية الإنسانية ذات التقويم الثقافي، من خلال نسق قيم إيديولوجية وجمالية (...) ومهما يكن نوع التأويل، فإن البنيات الابيستيمولوجية الخاضعة لمبحث تاريخ السيميوطيقا ليست ابدا حياديتة أو أي شيء آخر" (ص 325.

صحيح أن هذا النمط السيميوطيقي ،كمجال للأدلنة Signifiance، هو بالضرورة متعدد ومركب في النطاق الذي هو حاصل ثقافي تاريخي وإيديولوجي. إن تعدد المجال السيميوطيقي يعني توسيعا لمجاله بدون حدود. وفي هذا السياق نفهم كلمة دوسوسير المتنبئة ضد جمود السيميوطيقا المستقبلية "أين ستقف السيميولوجيا؟. من الصعب التكهن بشيء، سيمتد مجالها باستمرار "(1967 – 68 ص 46 – 47).

إن تعريف كريستيفا يتحدد أيضا ضمن هذا التوسع، فالسيميوطيقا- بالنسبة إليها-هي نقد لنماذجها الفكرية، أو للعلم الذي ينقد ذاته، إنها نقد ذاتي. السيميوطيقا تشكل قطيعة مع النظرة الغائية لعلم خاضع لنسق فلسفي، إنها طريق مفتوح إلى ما لا نهاية.

"ملتقى العلوم وصيرورة نظرية دائمة، السميولوجيا لا يمكن أن تتشكل كعلم، وهي أبعد ما تكون عن العلم، إنها نهج مفتوح للبحث، هي نقد مستمر تحيل على ذاتها بمعنى تنقد ذاتها". (1968 ص 83).

إن نموذج إيكو (1984) يبدو لي أكثر تكاملا لحصر مجال تاريخ السيميوطيقا. فالسيميوطيقا – بالنسبة إليه – حين ننتمي إلى العلوم الإنسانية فهي لصيقة جدا بالفلسفة والاستطيقا. إنها حقل تخصصي أكثر منها تخصص. وعبر التمييز بين التعريف الداخلي لبنية العلامة داخل التداول الاجتماعي، وصيرورة الأدنة المستمرة للفرد اللاواعي، يطرح إيكو الفرضيات الثلاث بهدف تحديد موضوع تاريخ السيميوطيقا.

ا – الفرضية المقننة : تاريخ السيميوطيقا ينسحب فقط على المؤلفين الذين ساهموا في إبراز ماهية وبنية العلامة.

ب – الفرضية المعتدلة : تاريخ السيميوطيقا يجب ان يشمل النظريات المغمورة والمكبوحة.

ج – الفرضية الموسوعية على تاريخ السيميوطيقا أن يأخذ بعين الاعتبار، ليس فقط النظريات، ولكن أيضا الممارسات السيميوطيقية : الطقوسيات، الموسوعات ،الرموزيات، الإيقونات...الخ.

غير أن هذه المجموعة من الاقتراحات تبدو لي ضاربة في التجريد، ولا تطرح أية أسس ابيستيمولوجية. وفي هذا الصدد، يجب إعادة الاعتبار للوضع الابيستيمولوجي للسيميوطيقا المعاصرة. إنه من الصعب إدراك عملية حصر موضوع السيميوطيقا كإجراء، إذا أخذنا في الحسبان تعدد وتنافر السيميو-

نظريات، والمواقف الذهنية تجاه السيميوطيقا، وعدم الاستقرار المؤسساتي. لكن، يمكننا، على الأقل، أن نكثف هذا في أربع نقط لائحة الاستفهامات الخاصة بالأسئلة الجوهرية التي طرحت في الثمانينات :

أ - هل السيميوطيقا تحدد بموضوعها أم بمنهجها الخاص؟، بمعنى هل جوهر السيميوطيقا هو جوهر.

ب - أنطلوجي أم هو تحديد منهجي؟

ج - مجال البحث السيميوطيقي، هل هو مجال جد محدد ،أم هو مجال يشمل جميع التخصصات؟

د - هل نجحت السيميوطيقا في الحصول على الشرعية العلمية والاستقلالية المنهجية، أم هي تابعة فقط لمنهجية علوم إنسانية أخرى؟ ،إنه سؤال متعلق بلغة العلم الواصفة على المستوى المنهجي.

ه - هل السيميوطيقا تمتلك استقلالا سوسيو-ثقافيا داخل السياق المؤسساتي؟. بعبارة أخرى، هل للسيميوطيقا ركائز ابيستيمولوجية مستقلة داخل صيرورة الاشتغال المؤسساتي؟.

نحن نرى في هذه القائمة من التساؤلات تعبيرا عن حركة أو هما ايبستيمولوجي، من طرف السيميوطيقيين المتشبتين بتحديد موقعهم داخل المنظومة العلمية. والأجوبة عن تساؤلات هذه القائمة ستكون سلبية. إن السيميوطيقا الراهنة هي من التعقيد بحيث لا تسمح ،دون شك ،بأي تحديد منهجي أو انطلوجي, وبالرغم من مجموع الاعمال والمحاولات التركيبية، فإن السيميوطيقا لم ترق الى ذلك التجانس الابيستيمولوجي ،(هلبو Helbo 1979 إشباخ ، وإشباخ-شرابو 1986 للبيبليوغرافيا). ونسوق كمثال سيميوطيقا بورس وسيميوطيقا دوسوسير اللتين تجسدان ريادة الابدال السيميوطيقي الحالي، تختلفان كليا في السيـــــاق الثقافي لميلادهما (دولودال 1979). حتى داخل العصب السوسيري-يامسليفي يصعب حصر النواة الصلبة المشتركة بين مختلف الاشكال السيميولوجية ما بعد سوسيرية. وعلى سبيل المثال، سأتي بعض ا لملاحظات المقتضبة حول موضوع الاختلاف المنهجي بين سيميولوجيا التواصل وسيميولوجيا الدلالة ،(فوا Voigt 1991). فالاولى تختار تعريفا معياريا للإمساك بالموضوع، في حين تمتاز الثانية بوجهة نظر واقعية. وبالفعل، فموضوع السيميوطيقا، حسب سيميولوجيا الدلالة، ليس صنفا من الظواهر العينية الحسية، ولكنه موضوع يبنى في الحد الذي يتضمن التواصل الضمني واللاواعي (كوكي Coquet 1982). بينما تختار سيميوطيقا التواصل نهجا معياريا، يعني أنها تميز بين ما يمكن معالجته وفقا للمعايير الموضوعية، وبين مجال متاخم وملتبس. إن هذه الظرفية الابيستيمولوجية تمنح حلولا مختلفة داخل الحقل ا لاشكالي المشترك. وهذا الاختلاف الانطلوجي في تحديد الموضوع السيميوطيقي يتكرر على المستوى المنهجي، بعد هذا، نخلص الى القول إن مجمل السيميولوجيا ذات المنحى السوسيري توجد في حركة انزلاق واضطراب، بحيث تنتج الانتهازية المنهجية والانتقائية

النظرية. وضمن هذا الغموض الايبستيمولوجي، يمكن للمقاربة التاريخية للسيميوطيقا أن تجد تبريرا لها من اجل وضع الاسس الايبستيمولوجية. سأطرح هنا بعض الاسئلة المتعلقة بمنهجية تاريخ السيميوطيقا.

IV - نموذج تاريخ السيميوطيقا

لم يفتح النقاش حول الاسئلة المنهجية لمشروع تاريخ السيميوطيقا إلا حديثا (إزباخ ESCHBACH 1983 ، شميترSCHMITTER 1983 دوتز dutz 1986 فيما يخص الحلول الا بيستيمو منهجية للإنتاج التاريخي في اللسانيات، توجد أدبيات غنية نسبيا (اورو 1980، 1987، 1989، سيمون SIMONE 1975، سويكرس SUIGGERS1979، 1983، ريبو RIEU 1987، كويرنرKOERNER 1980، 1984، 1989، هييمس HYMES 1974)، ولا زلنا نعاني من الغياب الكلي للأسس الابيستيمولوجية في الانتاج التاريخي للسيميوطيقا. بعبارة أخرى، ليست لنا بعد منهجية مستقلة في مجال تاريخ السيميوطيقا, وسيكون من الأجدر العمل "سيميائيا" عل بناء نموذج تاريخية الانتاج السيميوطيقي. لكن وللأسف، الامر ليس كذلك، والنتيجة أن مؤرخي السيميوطيقا يحيلون على نماذج فاعلة في مجالات أخرى.

إن النموذج الأكثر إثارة للجدل هو نموذج كوهن "ثورة البنيات العلمية". وأطروحة كوهمن KUHN المحورية هي كالتالي: إن التحكم العلمي لا يفسر بالمنهاجية المركبة من قواعد علمية. ولكن بالرابطة العلمية التي هي القائمة على تتبع مظاهر الابتكار العلمي, إن المفهوم المركزي لأطروحته وهو الابدال يقوم علي التعدد المتكافئ للوقائع الامبريقية، والقوانين النظرية، والعلل الميتافيزيقية ,وإجمالا فإن تشعب مفهوم الإبدال يتشكل من مجموع قوانين المحتوى في الاكتشاف العلمي من جهة، وبوظيفته داخل الرابطة العلمية من جهة أخرى.

"كما يمثل في مستوى آخر مجموع المعتقدات والقيم المتعارف عليها، وكذلك التقنيات المعروفة لدى أفراد مجموعة معينة. أما من زاوية أخرى، فهو يدل على عنصر منعزل من هذه المجموعة ,في حين يمكن للحلول الملموسة للألغاز الموظفة كنماذج أو أمثلة أن تنوب عن القواعد الظاهرة، كأساس للحلول بالنسبة للألغاز المستمرة في العلم العادي," (1983 ص 238),

ليس هد فنا التعمق في المضامين الفلسفية لنموذج كوهن ، -كوهن 1970-1976 لاكاتوس وميسغراف MUSGRAVE 1970)، ولكن على كل حال،فهذا النموذج كان له أثر بالغ على تاريخية الانتاج في العلوم الانسانية والاجتماعية، وذلك من خلال توضيحه للعوامل الابيستيمولوجية لتاريخ المعرفة، وكذلك التبعية تجاه الموثرات السوسيو-نفسية, والسؤال المطروح هو كالتالي، هل يمكن تطبيق

نموذج كوهن جوهريا على تاريخ الانتاج في السيميوطيقا (حول تطبيق نموذج كوهن على تاريخ الانتاج في اللسانيات انظر بيرسوفال PERCIVAl 1976)، هل هناك سيميو-نظرية أو ا بدال سيميوطيقي يلتقي مع مفهوم كوهن ،أي هل هناك توافق ايبستيمي؟,

وإزاء غياب قاعدة مفاهيمية مشتركة بين كل السيميولوجيين، أقول بأن الوضع الحالي للسيميوطيقا ينطبق على ما يسميه كوهن ب "ما قبل إبدالي", وليس فقط نموذج كوهن الذي يمكن ان نناقش صلاحية تطبيقه على تاريخية الانتاج في السيميوطيقا. هناك أيضا نماذج بوبير، لاكاتوس، فوكو إلخ ،هي الاخرى تستحق مناقشة عميقة من اجل تاريخ السيميوطيقا, جل المواقف تردد أن السيميوطيقا ليست علما كباقي العلوم الأخرى، ومن المستحيل التطبيق الآلي للنماذج الخارجية, هذا بالاضافة الى أنه في نماذج تاريخ العلوم، ليست هناك وحدة نظرية خاصة بالتصور العلمي، تساعد على فهم التأرجح بين نموذج التراكم المتواصل ونموذج الانقطاع ,ثم من جهة أخرى، لا يمكن تفادي صعوبة التمييز بين ما هو داخلي وبين ما هو خارجي في تطور علم ما, وهذا يطرح سؤالا منهجيا يتكرر باستمرار في تاريخية الانتاج في العلوم. وفيما يخص تاريخ السيميوطيقا- بصيغة الجمع- فإن إيزياخ eschbach (1983) قد وضح النظام المعقد لديناميتها. وقد نتج عن ذلك، مشكل صعب حول نمذجة العمل في تاريخية الانتاج الذي يتخذ كموضوع له تطور البحث السيميوطيقي.

وقبل أن ننطلق، إذن، في وصف هذا التطور، من الضروري أن نؤسس ،أولا، منهجية تساعد على حصر خصائص مجموع النظريات السيميوطيقية، وبنينة صلاتها بالسياقات السوسيو-سياسية والمؤسساتية التي أفرزت هذه النظريات, ومن الواجب، التأكيد على وجود لعبة تفاعل مستمر بين النظريات السيميوطيقية، وبين عواملها الخارجية في إنتاج الخطاب السيميوطيقي.

أمام هذا الوضع، يستحسن، سيميائيا، بناء نموذج تاريخية الانتاج في السيميوطيقا, وهذه اقتراحات أولية، إن نظرتنا الاجمالية تشمل ثلاثة مكونات الاول والثاني إبيستيميان، بينما الثالث ليس كذلك.

أولا، نموذج تاريخ السيميوطيقا ،عليه أن يوضح الصيرورات المحايثة للمعرفة العلمية على المستوى الابيستيمي, وفي هذه الحالة، فإن الموضوع الأول هو النص السيميوطيقي، بمعنى بناء الواقعة السيميوطيقية، وهذا ليس بالسؤال الهين لأن الامر يتعلق بالخصائص المكونة لتاريخ السيميوطيقا, وبناء النص هذا، يقوم على تأويل أساسه ثلاث وظائف هي إعادة البناء، والانتقاء، ثم الترابط في الواقعة السيميوطيقية, وضمن هذه المقاربة التأويلية لبناء الواقعة السيميوطيقية، فإن اقتراح أورو AUROUX

(1989) الذي يميز ين ثلاثة عناصر يبدو لي مفيدا: 1- تحديد فينومينولوجي خالص. 2- حياد ابيستيمولوجي. 3- تاريخانية معتدلة.

أما المكون الثاني فيهتم بحصر العلاقات بين الأفكار الموجهة في مجال السيميوطيقا ،وبين الحركة العامة للأفكار في التخصصات الأخرى.

قي حين يرتبط المكون الثالث برد اعتبار للمؤثرات السوسيوسياسية والاقتصادية. وكتلخيص لهذه المكونات ،فعلى مستوى الابيستيمولوجا الداخلية، إذا كان النص هو نقطة الانطلاق، فإن تحليل النص يفرز مكونات وعلائق سياقية، وما يتبقى من هذا التحليل ليس النص إطلاقا، ولكن تشكيل للنص ذاته, وضمن هذا التحليل لمكونات ا لنص، فتاريخ السيميوطيقا عليه أن يأخذ بعين الاعتبار، ليس فقط النتائج، ولكن ايضا استخراج الاجراءات المعرفية, وحسب هذا الموقف، فتاريخ السيميوطيقا سوف لن يهتم بالعرض التراتبي للسلف والرواد، ولكن سيهتم بالبرهنة على تعدد الصيغ المعرفية .وعبر زاوية النظر هذه فتاريخ السيميوطقا ليس هو بتاتا التسلسل السطحي للنظريات أو النماذج اللسانية, أما على مستوى الا يبستيمولوجيا الخارجية، فتاريخ السيميوطيقا هو جزء من الابيستيمولوجيا العامة، ما دام انه موجه بالابدال الثقافي لحقبة معينة.وهذا الافتراض يتضمن نقطتين، في الدرجة الاولى يجب أن نعتبر تاريخ السيميوطيقا جزءا من تاريخ الافكار المسيطرة ,أما في الدرجة الثانية، فتاريخ السيميوطيقا كلغة واصفة تنتمي الى تاريخ العلوم، عليه ان يدرس في إطار العلاقة المركبة للحقل العلمي, إن مرحلة تاريخ السيميوطيقا، يجب أن تلتحق بالمرحلة النظرية لتاريخ يبحث عن تفسير العلاقات الموجودة في تطور النظريات العلمية، وذلك بالرجوع الى نظرية التاريخ. ثم في محطة قادمة، يجب العثور على إيديولوجية مهيمنة تكون قد ساهمت في التأثير في تكون الافكار السيميوطيقية، إذ يتعلق الأمر بتحديد حتميات تاريخية - عملية في الانتاج السيميوطيقي.

وهكذا، فيما يقوم المكونان الاول والثاني باستكشاف العلاقات بين النظريات السيميوطيقية والاجراءات المعرفية التي تجعلها ممكنة، فإن المكون الثالث يرتكز على إعادة بناء عناصر غير إ بيستيمية. وعموما، من المناسب أن نحدد ،عبر وساطة النظريات السيميوطيقية والصيغة الابيستيمولوجية المهيمنة، الظروف السوسيو- اقتصادية المميزة نمطيا للحظة معينة من التطور العلمي, ومن هذا المنظور، فإن قيام تاريخ السيميوطيقا يعتمد على مجال التاريخ الاجتماعي للسيميوطيقا الذي يساهم في إبراز تطور وتسلسل المفاهيم السيميوطيقية في حقل علمي, ونوضح مفهوم " الحقل العلمي" كما بلوره بورديو, بالنسبة اليه، فالمكون الابيستيمي له صلة وثيقة بالحقل السوسيوسياسي في المجال العلمي، لأن اشتغال

الحقل العلمي ذاته يتطلب شكلا خاصا من الاهتمام. إن عزل بعد خارجي كهذا هو خطأ فادح، ما دامت الكفاءة العلمية لا يمكن فصلها عن التمثل الاجتماعي الذي هو عامل حاسم في الحقل العلمي. وتبعا لمنطق بورديو الجذري ،فإن علما متأصلا في المعرفة لا يمكنه أن يتشكل إلا بشرط التقويض الجذري للتعارض بين الابيستيمولوجيا الداخلية والابيستيمولوجيا الخارجية، لأن الحياد الابيستيمولوجي ليس سوى وهم مقنع حتى يتم تجاهله من لدن التمثل المهيمن في المحيط الاجتماعي. وعموما، فإن الحقل العلمي هو مجال المنافسة من اجل الحصول على احتكار الكفاءة العلمية.

وينجم عن تحديد صارم للحقل العلمي، كفضاء موضوعي تتشابك داخله رهانات علمية، انه لا جدوى من التمييز بين تحديدات علمية خالصة وبين تحديدات اجتماعية محضة لممارسات هي أصلا مظهر لتحديدات ذات عوامل بنيوية متعددة (بورديو 1976 ص90.)

وبالرغم من كون مفهوم الحقل العلمي يبدو أكثر تجذرا (وصرامة) لكي يطبق على نموذجنا الخاص بتاريخية الانتاج السيميوطيقي، فإن أهميته لا يستهان بها في حصر فاعلية سوسيولوجية المعرفة في تاريخ السيميوطيقا, ومهما يكن، فإن وضع تاريخ اجتماعي للسيميوطيقا يبقى عملا ضروريا . إن مؤلفي " تاريخ السيميوطيقا " قد أدركوا جيدا البعد الاجتماعي لتاريخ السيميوطيقا (هذه اللامبالاة تجاه مكونات السيميوطيقا، تبدو مرتبطة بحذف حاد في تاريخ السيميوطيقا، مما يشكل تأثيرا على الحاضر بصفة عامة، وعلى التاريخ الاجتماعي للسيميوطيقا بصفة خاصة. ولنا أن نتصور تاريخا للأفكار مستقل كليا عن المجتمعات البشرية والمؤسسات. (إشباخ وترابون1983) .إن الدور الاساس لنموذجنا الثلاثي البعد هذا، يكمن في الوصول الى الإجابة عن العلاقات بين المكونات الثلاثة المختلفة بغض النظر عن التجاور فيما بينها.

V خاتمة

لقد عاجنا، باقتضاب شديد، أسئلة ابيستيمولوجية - منهجية تطرح حول مشروع تاريخ السيميوطيقا. ومهما تكن دوافع هذا المشروع-سواء كانت من أجل إقرار ركائز تاريخية لنظرية خاصة، أو محاولة حيادية من اجل تحديد الاسس الابيستيمولوجية لعلم ناضج، - فمن المؤكد ان هذه الاشارات التاريخية تعكس بطريقة مباشرة الحالة المضطربة للسيميوطيقا المعاصرة التي تبحث عن هويتها الابيستيمولوجية. أما فيما يتعلق بتاريخ اللسانيات فإن أورو 1989 يسمي هذه الاحالة على المعرفة

القبلية ب "أفق الاسقاط" الذي تعد بنيته سببا في الانتاج التلقائي للبحث." بعبارة أخرى، فالولادة المعاصرة لتاريخية الانتاج في اللسانيات تتطابق مع الضرورة الملحة لبناء أفق الاسقاط" (ص35).

ومع أن فرضية أورو تحتوي على عناصر نابعة من خصوصية بنية النسق العلمي، فهذا المفهوم (أفق الاسقاط) يبدو لي ناجعا لفهم مشروع تاريخ السيميوطيقا. وبالفعل، فإن أي علم أو تخصص ما يترع نحو العودة الى تاريخه عندما يبلغ درجة من النضج الابيستيمولوجي.وفي حالة تاريخ السيميوطيقا فإن التحديد الابيستيمولوجي والانطولوجي هو رهان حقيقي في هذا المشروع . ومع هذا، وبالرغم من هذه الارادة القوية، فإن تاريخ السيميوطيقا يصطدم بصعوبات عميقة من ضمنها غياب الاسس الابيستيمولوجية. إن موضوع تاريخ السيميوطيقا لم يحدد بعد بشكل قاطع سواء من حيث الاستقراء أو من حيث الاستنباط. لهذا قلنا بأن هذه الازمة الابيستيمولوجية للسيميوطيقا المعاصرة تطابق المرحلة ما قبل الابدالية أوما قبل الأنموذجية. وأمام استحالة وضع تعريف معياري علينا ان نتبنى موقفا واقعيا، بمعنى أن نقيم، سيميائيا، نمذجة للممارسات السيميوطيقية . كما يجب أن نتذكر أيضا أن هذه الازمة التي تعرفها السيميوطيقا ليست ظاهرة متفردة، فقد حصل للسانيات نفس الشيء إبان تأسيسها في القرن الماضي (أمستردامسكا AMSTERDAMSKA 1987).

وفي الاخير طرحت سؤال المنهجية في إطار تفسير تمظهرات المعرفة السيميوطيقة من زاوية ابيستيمولوجية – تاريخية. لقد أكدت على مسألة بناء منهجية سيميوطيقية خاصة بنموذج تاريخ السيميوطيقا بدل استنساخ نماذج من العلوم (الصلبة). وفي هذا الاطار الخاص بنموذج تاريخية الانتاج، اقترحت ثلاثة عوامل أساسية: ابيستيمولوجية داخلية،وابيستيمولوجبة خارجية، وسوسيولوجية العلم أو المعرفة. والرهان يكمن في فهم تكامل علاقات هذه المكونات الثلاثة فيما بينها.

---

*Apropos d’un projet d’histoire de la sémiotique questions et problèmes épistemologiques- revue langage No 107 septembre 92 éd Larousse pp: 28-37